المحاضرة 2: الحجاج عند الفلاسفة والمناطقة

1-الممارسة الحجاجية عند اليونان:

يرى الدارسون أنّ أثينا مهد الحجاج وحاضنته الأولى، بما سادها من حرية وديمقراطية بعد دحر الإقطاع وإنهاء الظلم، وذلك ما شجّع على إبداء الرأي والسّعي لإقناع الغير به والتأثير فيه، واعتماد القول سلاحا بديلا عن العنف وأدواته، فظهر أناس تفنّنوا في هذا الأمر ومنهم **السفسطائيون***(القرن 5 ق م).

أ_ الحجاج عند السفسطائيين:

لقد لعب السفسطائيون دورا مهما في الحياة الفكرية اليونانية، وفي تطوير البلاغة القولية، واهتمّوا ببنية الكلمة والجملة وبحثوا سبل الإقناع وإحداث التغيير في رأي الآخر، معتمدين على خبرتهم بمقامات النّاس والقول، وهذا ما حتّم على محاوريهم اتّباع مناهج حجاجية مختلفة، وهو ما ظهر في محاورات **أفلاطون** (Platon) (ت348ق م) لهم وتصدّيه لتلاعباتهم، وكذا في مصنفات **أرسطو**(ت384 ق م) الّذي حذا حذو أستاذه.

فصار هؤلاء السفسطائيون يعلّمون الحجاج لمن أراد دخول معترك السياسة وكسب أصوات العامّة، فاتّخذوا من هذه البراعة والبلاغة -كما يقول **محمد سالم الطلبة**-حرفة يلقنونها أبناء الأعيان الراغبين في دخول ميدان السياسة، والمدنية والمدينة عندهم تؤسّسان على بلاغة القول وأهله .

وقد اعتبرهم أفلاطون أدعياء على العلم والمعرفة، فاعتمادا على سلطة القول أصبح بإمكانهم توجيه الحجاج بحسب مقتضى المقام، والاحتيال على الحقيقة والقيم، إذا كانا لا يخدمان غرض المحاجج، فالخطيب البارع يستطيع نصرة الحق كما يستطيع نصرة الباطل، بقوّة حججه وبراعته بالأقيسة والقضايا.

وبهذا يكون الحجاج عندهم لعب بالحجج وتلاعب بالألفاظ للتأثير في المتلقي وإقناعه، وهو ما عُرف بالحجاج المغالط، أو الأساليب المغالطية، إلاّ أنّ ذلك لم ينقص من الأهمية التاريخية لعملهم الحجاجي ولم ينف فضل الأسبقية عنهم، بل إنّ ذلك يثبت، تمكّنهم من الممارسة الحجاجية وتطويع الحجج لخدمة غاياتهم، فإقناع الناس بالأمر وضدّه ليس بالشيء الهيّن، وإن خالف القيم التي سعى إليها أفلاطون وجعلها معيارا لمدينته

* حركة فلسفية وظاهرة اجتماعية برزت في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد تميّز روّادها بالكفاءة اللّغوية البلاغية وبالخبرة الجدلية، وبالحجاج المغالط.

الفاضلة، لأنّ الواقع يخالف الكثير من المُثل والقيم.

ب- الحجاج عند أفلاطون(Platon)توفي (347ق م):

ارتبط الحجاج عند **أفلاطون** بمحاورته للسفسطائيين، وقد حلّل موضوع الخطابة في ضوء المقابلة بين العلم والظن، حيث خلص إلى أنّ الإقناع نوعان: يعتمد الأولّ العلم في حين يعتمد الثاني الظنّ-وهو موضوع الخطابة السفسطائية-واعتبره إقناعا غير مفيد لأنّه لا يكسب الإنسان العلم والمعرفة، وانّ خطاباتهم تزيينية تمويهيه، لا تحقّق الفضيلة التي ينشدها في مدينته الفاضلة.

وقد اعتمد معياري العلم والخير أساسا لكلّ حجاج أو بلاغة مجديين ينفعان الفرد والمجتمع، وهو معيار قيمي غير موضوعي، ولم يهتم أفلاطون بالحجاج على أنّه "صناعة قول"، فعدّ المبالغة في تحسين العبارة تخلخل علاقة الفكر باللغة في الخطاب، والجمال عنده مدراه على الحقيقة والفضيلة بموجبها استبعد الحجاج السفسطائي من دائرة الأهميّة.

وبهذا يكون منهج أفلاطون منهجا مثاليا «يحارب الظنّ والمراوغة والتزييف وتحقيق المآرب غير الشرعية بسلطة القول، وبالتالي فهو منهج غير سياسي، نظرا إلى ما تبيحه السياسة من وسائل متعددة للوصول إلى غاياتها».

وأيّا كان منهج افلاطون-الذي يرى البعض أنّ في نفسه شيء من الديموقراطية التي زحزحته عن طبقته الأرسطوقراطية -فقد كانت محاوراته للسفسطائيين وجهوده في صناعة القول دعامة من دعامات النظرية الحجاجية القديمة والمعاصرة، وممارسته الحجاجية تحكمها القيم، والسعي للحقيقة، ولم تكن غاية في حد ذاتها، لذلك لم نعتبرها نظرية قائمة بذاتها.

ج-نظرية الحجاج عند أرسطو(Aristot)(384-322ق م):

يرى **محمد الولي** أنّ **أرسطو** قام بإعادة فتح ملف البلاغة، واحتفظ بالتقسيم الثنائي (الجدل والخطابة) لكنّه لم يطابق بينهما كما فعل أستاذه أفلاطون، فلقد جعل لكل منهما أسلوبا حجاجيا متميزا وأشار إلى أهميتهما، وحاجة الناس إليهما في كتاب الخطابة، حيث يقول: «...إنّ الناس جميعا يشاركون بدرجات متفاوتة في كليهما لأنهم جميعا إلى حدّ ما يحاولون نقد قول أو تأييده والدّفاع عن أنفسهم أو الشكوى من الآخرين»

والمتأمّل في نظرة أرسطو إلى الحجاج يجدها قد تأسّست على «دعامتين أساسيتين: الأولى يختزلها مفهوم الاستدلال (Raisonnement)، والثانية تقوم على البحث اللغوي الوجودي، فالأوّل حجاج جدلي لا يستغّل الأخلاق والطبائع والانفعالات في إقناع محاوره،

فهو مؤسّس على خطّة حجاجية يتمّ من خلالها استدراج المعني إلى التسليم بمضمون المقدّمات والنتائج. والثاني حجاج خطابي يصاغ لجمهور معيّن يعرف الخطيب مسبقا خصائصه بحيث يتوجّه إليهم باستدلالات إقناعيه تؤدّي بهم إلى التسليم.

وقد حصر الخطابة في المقامات السيّاسية الثلاثة التي تلائمها الأجناس الخطابية: القضائية، الاستشارية والاحتفالية، والحجاج في هذه الخطابة محصّلة أركان ثلاثة: (اللوغوس) أي القول بما هو فكرة و(الاخلاق) أخلاق القائل و(الانفعال) انفعال المقول له. وهذه الأركان هي في الأصل أطراف العملية التخاطبية، والتفاعل بين هذه الأطراف يعطينا حجاجا ناجعا:

-**حجج الباث أو (الإيتوس)**: وهي كون الخطيب موضع قبول عاطفي لخطّة بث الخطاب وتلقيه لدى المتلقي.

-**حجج المتلقي (الباتوس)**: وهو ما ينزع إليه الإنسان (المتلقي) نزوعا طبيعيا أي استعداده الطبيعي. فهو البعد الأخطر في كل بلاغة إذ الغاية في النهاية هي التأثير في هذا المتلقي، وبالتالي معرفة الخطيب به وبأبعاده السيكولوجية والنفسية والثقافية والإيديولوجية أمر ضروري.

- **حجج الخطاب نفسه(اللوغوس):** ويمثل الحجاج المنطقي الذي يمثّل الجانب العقلاني في السلوك الخطابي، فيرتبط بالقدرة الخطابية على الاستدلال والبناء الحجاجي، وهو المتعلق بالخطاب نفسه.

وبهذا يكون الحجاج عند أرسطو من أنضج الأعمال الحجاجية القديمة.

وخلاصة ما سبق يمكننا القول بان الفلاسفة اليونانيين قد مارسوا الحجاج باعتباره جزءا من العملية التخاطبية، وارتبط ذلك بتوجّهاتهم الفلسفية، فاختلفوا في تناولهم له، فاتّخذه السفسطائيون وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم وتضليلهم والتشكيك في الحقيقة، واستعمله أفلاطون في محاوراته للوصول إلى الحقيقة وبناء المعرفة ونشر الفضيلة، وجاء أرسطو: «فهدم ما بنوا لكنّه لم يطرح كل ما جاؤوا به، بل استخدم مكوّنات البناء الذي هدمه في بنائه الجديد. محاولا بذلك صيّاغة نظرية حجاجية جديدة مبنية على أركان الخطاب، ويكون الإقناع فيها مقدّما على عوامل التأثير التي عُني بها السفسطائيون، فوضع المقوّمات التي ينبني عليها الحجاج، والتي تمثّلت في الحجج ومقامات التواصل التي تُعدّ دعائم وأسس الدرس الحجاجي الحديث.